في كل ليلة حكاية

١٦

أما آن لك أن تزورنا

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

فِي بَطْحَاء مَكَّة المكرَّمَة

سَمِعَ الشَّبابُ من خَطيبِ المَسجدِ بَعضَ الأُمورِ التي عَانَى منهَا المُسلمونَ فِي العَهدِ المكِّيِّ ، خَاصَّةً في السَّنواتِ الأُولى ، وَضَرَبَ لَهم مَثلاً تَرويهِ كُتُبُ التَّاريخِ:

رَوى (عَبد الله بن عَامِر) عن أَبيه عَامِر رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ:

كَان رسولُ اللهِ ﷺ يَبعثُنا في السَّرية ، مَا لنَا طَعامٌ إلاَّ الجرابَ من التَّمرِ ، فَيقسِمهُ صَاحِبهُ بينَنَا قَبضةً قَبْضةً!!

وضَرَب أَمثلةً أُخرَى...

وَلمَّا خَرجُوا من المَسجدِ قَالَ (أَنورُ): لِمَاذا

لا نَسألُ وَالدتي عن تَفْصِيلِ ذَلِكَ أَكثَر؟

وَفي المَساءِ اقتَرَحَ (أنورُ) على وَالدتِهِ أن تُحدِّثَهم عن بَعضِ ما حَدثَ للمُسلمينَ في بِداياتِ الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالَى..

ورَاحَتْ (أُمُّ أَحمَد) تَحْكِي لهمْ حِكَايتَها الجديدةَ لهَذه اللَّيلةِ السَّعيدَةِ:

كَانَ (بِلالُ بن رَبَاح) رَضيَ اللهُ عنهُ ، عَبْداً عندَ (أُميَّةَ بن خَلفَ) ، وَكانَ شدِيد السُّمْرةِ ، طَويلاً نَحِيفاً...

وَذاتَ يَومٍ تَرامتْ لهُ بشَارَةُ الصِّدِّيقِ رَضيَ اللهُ عنهُ لهُ ، وَذلكَ حِينَ أخبرهُ بِمَا أُرسِل إلى رَسولِ اللهِ مُحمَّد ﷺ.

وَدَخلَ النُّورُ والهِدَايةُ إلى قَلْبِ بِلالٍ ، فَأعْلنَ إسلامَه!!

وَبدأَ مُسَلسَلُ التَّعذيبِ ، وَحَاولَ المُسْتكْبِرونَ مِن المُشْرِكينَ أَن يُعيدُوا العَبِيدَ إلى دِينِ الآباءِ والأَجْدادِ.

وَصَمَد المُسلمونَ صُمودَ الجِبَالِ الرَّواسِي ، وسَقطَتْ (سميَّةُ) وَالدَةُ (عَمَّار بن ياسِر) شَهِيدةً فِي سَبيلِ اللهِ...

وَلمَّا وَصَلَ خَبرُ إِسْلام (بِلالِ بن رَبَاح) رَضِيَ اللهُ عنهُ إلى سَيِّدِهِ (أُميَّة بن خَلفَ) ، أَسرعَ أُميَّةُ يَستَفْسِرُ عَن الخَبرِ... فَقالَ لِبلالٍ: أصحيحٌ أَنَّكَ تَرَكتَ دِينَ الآباءِ والأَجدادِ ، وأنَّك تُسفِّه اللاتَ والعُزَّى وَهُبَل؟

فَقالَ (بِلالُ) وَبكلِّ جُرأةٍ: أَشهدُ أن لاَ إلهَ إلاَّ الله وَأَشهدُ أنَّ مُحمَّداً رَسولُ اللهِ ، وَهذهِ الأَصنامُ لَيستْ إلاَّ حجارةٌ لا تَضرُّ ولا تَنفَعُ..!!

فَأمَرَ (أُميَّةُ) عَبِيدَهُ أن يَربِطُوا (بِلالاً) ثُمَّ

يَحملوه إلى الرِّمالِ الصَّحراويَّةِ.. ثُمَّ يَخلعُوا عَنهُ غَالبيَّةَ لباسهِ ، وَيُلقَى على تِلكُم الرِّمَالِ التي تَكادُ تَفورُ من شدَّةِ حَرارةِ الصَّحراءِ..

وَهَكَذا تُوضَعُ صَخْرَةٌ عَظِيمةٌ على صَدرِ (بِلالٍ) و..!!

بَينمَا (بِلال) رَضيَ اللهُ عنهُ ينشدُ نَشِيدَهُ الرَّائعَ: أحدٌ.. أحَدٌ ، فردٌ صَمَد ، ليس له وَالد ولا وَلد ، وَلمْ يكُن لهُ كُفواً أَحد..

وَيكادُ (أُميَّةُ) أَن يُصابَ بِالجنُونِ.. فَماذا يَفْعَل بعدَ كلّ هَذا العَذابِ؟!

فَيأمُرُ غلمَانَهُ وَعَبِيدَهُ أَن يَضَعُوا سِلسلةً طَويلةً فِي عُنُقِ (بِلال) وَيقتادهُ في أزقَّةِ مكَّةَ وهُم يشتمُونه ويَسبُّونه و..

وَكلَّما مَرَّ المَوكبُ بِالمشْرِكينَ سَخِروا منهُ وَقالوا: أينَ نَصْرُ ربِّك لكَ يا بِلالُ؟ وأَينَ الجنَّةُ

التي يَعدكُم بها محمَّدُ بن عَبد الله؟!

وَبِلالٌ رَضِيَ اللهُ عنهُ يُردِّد: أَحدٌ.. أَحد..

وَذاتَ يَومٍ مَرَّ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ عنهُ فَوجدَ أُميَّةَ وَزبانيَّتهُ يُعذِّبون (بلالاً) رَضيَ اللهُ عَنهُ ، فَقالَ لأميَّةَ:

أَلا تتَّقي اللهَ في هَذا المِسْكِين؟ حتَّى متَى وَأنتَ تعذِّبه عَلى الرَّمضاءِ؟

فَأجابهُ أُميَّة: أَنت الذي أفسَدتَ عَليهِ دِينهُ ، فَأنقِذْهُ ممَّا تَرى.

فَقالَ أَبُو بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: هل تبيعهُ يا أُميَّةُ؟ فَقالَ: نَعم ، أُريدُ ثمنهُ خَمس أواقٍ مِن الذَّهبِ..

وَدَفَعَ أَبو بكْرٍ ثَمنَ (بِلال) وأعتقَهُ في سَبيلِ اللهِ تَعالَى..

فَقالَ أُميَّةُ سَاخِراً: خُذْهُ ، فو اللات والعزَّى ، لو أَبيت إلاَّ أن تَشْتَريهِ بأوقيَّةٍ وَاحدةٍ لبعتكهُ بِهَا.

فَيجيبهُ أَبو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ: وَالله لو طَلبتَ مِنِّي مِئَةَ أوقيَّة ثَمناً لهُ ، لدفعتُها إِليكَ!!

إلى مَدينَةِ الحَبيبِ مُحمَّد ﷺ

تَابعتْ (أُمُّ أَحمد) حكايتَها الرَّائعةَ قَائِلةً:

وَهكَذا أَصبحَ (بِلال) رَضيَ الله عنهُ حُرّاً يُمارسُ عِبادةَ اللهِ و....

حتَّى إذا مَا كَانتِ الهِجرَةُ إلى المَدينةِ المُنوَّرةِ.

انطلقَ (بِلالٌ) و(عمَّار بن يَاسِر) وَ (سَعْد بن أَبي وقَّاص) لِيكُونوا رِفَاق الرِّحلة مِن مكَّة إلى المَدِينةِ المنوَّرةِ.

وَلمَّا كَان يَومُ وُصُولِ الرَّسولِ ﷺ إلى المَدينةِ ، خَرجَ المُسلمونَ لاستقبالِه وهم يَعيشونَ الفَرحَ والسُّرورَ... ، وَكانَ في مقدِّمتهِم (بِلال) رَضيَ اللهُ عنهُ.

وَكَانتْ مَسألةُ المُؤاخَاةِ ، حَيثُ قَالَ الرَّسولُ ﷺ: «تَآخوا في اللهِ أخَوين أخوين».

فآخَى رَسولُ الله بين بِلاَلٍ وبينَ عبد الله بن عبد الرَّحمن الخثعميِّ رضيَ اللهُ عنهُمَا.. وَكانتْ أُخوَّةً لا مثيلَ لَها..

وَما هِي إلاَّ أيَّام حتَّى دَبَّ مَرضٌ خَطيرٌ بينَ المُهاجِرينَ ، وذلكَ بسببِ اختلافِ المناخِ بينَ مكَّةَ وبينَ المَدينَة المنوَّرةِ.

وَكانَ من المَرضَى أَبو بَكْرٍ وَبلالٍ ، رَضيَ اللهُ عَنهُمَا.

وَتَروي السَّيِّدةُ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنهَا: لمَّا قَدمَ رَسولُ الله ﷺ المَدِينَة ، وُعِكَ أبو بَكْرٍ وَبِلال ، فَدخلتُ عَليهمَا فقلتُ: يَا أَبتِ كيفَ تَجِدكَ ؟ ويَا بِلال كَيفَ تَجِدكَ؟

قَالتْ: وَكَان أَبو بكْرٍ إذا أَخَذَتْهُ الحُمَّى يَقولُ:

كُـلّ امْـرِئ مُصبَّـح فـي أَهلِـه
والمـوتُ أَدنـى مـن شِـرَاك نَعلـهِ

وَكانَ (بِلالٌ) إذا أقلعَت عَنهُ يَقولُ:

أَلا لَيـتَ شِعـرِي هَـلْ أبيتـنَّ لَيلـةً
بِـوَادٍ وَحـولِـي إذخـرٌ وَجَلِيـلُ
وَهَـلْ أَرِدَنْ يَـومـاً مِيَـاه مجنَّـةٍ
وَهلْ يَبدوَن لي شَامةٌ وَطَفيلُ[1]

قَالتِ السَّيِّدةُ: فجئتُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) شامة وطفيل: جبلان قرب مكة المكرمة.

فَأخبرتهُ فَقالَ: «اللَّهمَّ حَبِّبْ إلينَا المَدينةَ كَحُبِّنا مكَّة أو أشدّ ، اللَّهمَّ وَصحِّحهَا وبَارِك لنَا في مُدِّهـا وَصَـاعِهَـا ، وانقـلْ حُمَّـاهـا فـاجعلهَـا بالجُحفَةِ».

وَلمَّـا ألَهـم اللهُ بعـضَ الصَّحـابـة الأذَانَ ، وأعجبَ الرَّسولَ ﷺ لقَّنهُ بِلالاً رَضيَ الله عنهُ ، وَمُنْذُ ذلكَ الحِين أُطلِقَ على بِلالٍ بنِ رَباحٍ مُؤذِّن رَسول اللهِ ﷺ.

عَلى ظَهرِ الكَعْبة: اللهُ أَكْبَر!!

وَيدورُ الزَّمنُ دَورتهُ ، وتَكونُ غَزوةُ بدرٍ ، ويتَّفِقُ المُسلمونَ على أن يكونَ شِعَارهُم: أَحدٌ.. أَحدٌ..

ولمَّا رَأى (بِلالُ) أُميَّة بن خَلف.. انقَضَّ عَليهِ وَهوَ يقولُ: يَا عدوَّ الله وَ رسولهِ ، لا نَجوتُ إن

نَجا ، أنتَ رأس الكُفْر يَا أميَّة...

وَسَقَطَ أُميَّةُ صَرِيعاً وهوَ يَقولُ: لقَد قَتلنِي مَنْ كَان عَبدِي!!

فَلمَّا بلغَ أبَا بكْرٍ نَبأُ هلاكَ أُميَّة عَلى يدِ بلالِ بن رَبَاح تهلَّل وَجْههُ وَأنشدَ:

هَنِيئـــاً زَادكَ الـــرَّحمـــنُ خَيْـــراً

فَقـــدْ أَدركْـــتَ ثَـــأركَ يَـــا بِـــلالُ

وَلمَّا كَانتِ السَّنةُ الثَّامنةُ للهجرةِ ، وَكانتْ غَزْوَةُ فَتْحِ مكَّةَ.. وتحطَّمتِ الأَصنامُ عَلى يدِ المُسلمينَ ، وَكانَ الرَّسُولُ يقرأُ قَوله تَعالى:

﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

[الإسراء: ٨١].

عِندئذٍ أَمرَ الرَّسولُ مُؤذِّنه أَن يَصْعَدَ على ظَهرِ الكَعبةِ ، ويعلنَ النِّداءَ الخَالدَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أَكبرُ.

وصَعِدَ العَبدُ الحَبشيُّ على أَطهرِ بُقعةٍ في الكَونِ ، وَأعلَن نِداءَ التَّوحيدِ المُطلقِ لله.

وَلمَّا رآهُ المُشرِكونَ كَادوا لا يصدِّقُون عُيونَهُم ، لذلكَ قالَ عِكرمةُ بنُ أَبي جَهْلٍ : لَقد أَكرمَ اللهُ أبا الحَكم حيثُ لمْ يسمعْ هَذا العَبدَ ما يَقولُ!

بَينمَا غَطَّى بَعضُهم وَجهَه..!!

لكنَّه الإسلامُ الذي لا يُفرِّق بينَ عبدٍ حَبشِيٍّ ولا بَين وَاحدٍ من سادةِ قُريش!!

مَا هذهِ الجفْوَةُ يا بِلَال؟!

وَانتقلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأَعلى.. ، فَسكَتَ بِلالٌ ولمْ يعدْ يُؤذِّن أبَداً!!

ولَمَّا ألحَّ عليهِ الخَليفةُ أبو بَكْرٍ ، دَخَلَ

المَسجدَ النّبويّ وبَدأَ بالأَذانِ ، فلمَّا وَصَلَ إلى (أشهدُ أن مُحمَّداً رَسولُ الله) غلبهُ البُكَاء ، وَلمْ يعدْ يَتمَالَكُ نَفسهُ ، وَعندهَا فَهِمَ الصِّدِّيقُ سرَّ امتناعِ بلالٍ عن الأذانِ!!

وَلمَّا كَانَ عَهدُ الفَاروقِ عُمرَ رَضيَ الله عنهُ رَغبَ بِلالٌ بالجهَادِ في سبيلِ اللهِ ، وطَلَبَ منهُ الفَاروق أَن يَبقَى إلى جوارهِم بالمدِينَةِ المنوَّرةِ.

لَكنَّ بِلالاً أَصرَّ على الخُروجِ تَحتَ إمرةِ أبي عُبَيدَة رَضيَ اللهُ عنهُ.. فَخرجَ جُندياً إلى المَعاركِ...

وطَالَ الزَّمنُ في بِلادِ الشَّامِ ، لكنَّهُ في يَومٍ من الأيَّامِ هَبَّ بِلالٌ مُسرِعاً وقَد رَأَى رُؤيا خَافَ منهَا!!

لَقدْ رأَى الرَّسولَ ﷺ وَهوَ يقولُ لهُ: «ما هذِهِ الجَفْوةُ يا بِلال؟ أَما آن لكَ أَن تَزُورنَا؟».

فَانطَلَقَ إلى المَدينةِ المُنوَّرة.. وَهناكَ زارَ الرَّسولَ في مَسجده الشَّريفِ ، والتفَّ الصَّحابةُ الكِرامُ والتَّابعونَ حَولَ مُؤذِّن الرَّسول ﷺ.

ولمَّا عَادَ إلى الشَّامِ ، مَرِضَ مَرَضَ المَوتِ.. وتمدَّد على فراشِهِ ، فلمَّا رأتهُ زوجتهُ صَاحَتْ: وَاحُزْنَاهُ ، وَابِلالاهُ..

فَفتحَ عَينيهِ وَقالَ: لا تَقُولي ذَلكَ ، بَلْ قولي: وَافرحَتَاهُ ، غَداً نلقَى الأَحبَّة ، مُحمَّداً وَصَحبَه..

وهَكَذا غَادرَ مُؤذِّنُ رَسولِ اللهِ الدُّنيا.. وَلمْ تَفْتِنْهُ قِيْدَ أُنملَة.. فَرضِيَ اللهُ عنهُ وأَرضاهُ.

ويَكفِيه فَخْراً مَا بشَّرهُ رَسولُ الله أنَّه سيَدْخُلُ الجَنَّـة ، ويكفيهِ الشَّهاداتُ الرَّائعةُ من كِبارِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهُم ، وَكانَ مِنهَا:

كَانَ الفَارُوقُ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه يقولُ: أَبو بَكْرٍ سَيِّدُنا وَأعتَقَ سَيّدنَا!!

وَترتِّلُ (ابتِهال) قَوله تَعالى:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾

[الأحزاب: ٢٣].

وَآخر دَعوانا أنِ الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين